أعظم إنسان في العالم

[محمد صلى الله عليه وسلم] في القرآن والسنة

محمد بن عبد الله السحيم

المقدمة

الحمد لله الذي كرّم الإنسان بالإيمان، وميّزه بالعقل، ولم يَجعله كسائر المخلوقات، تعيش بلا هدف، أو تعيش لغيرها، بل جَعَله مُفكِّراً، يَسمو بفكره، ويُعمِل عقله .

ومن هنا قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:70] .

هذا التكريم الرباني هو في الأصل للأصل، أي لِجنس النوع الإنساني، إلا أن الإنسان بِنفسه يسمو بالإيمان، أو يَنحطّ بانعدامه .

وقد جَعَل الله له اختياراً، وأعطاه عقلاً، وأوضح له السَّبيل، وأبَان له الطريق ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:2، 3] .

وقال رب العزة سبحانه عن هذا الإنسان : ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:8-10] .

ومِن عدل الله وحِكمته أن أرسل الرُّسُل، وأنْزَل الكُتب، وأقام البيّنات، ونَصَب الأدلّـــة على وحدانيته .

فأيّـــد رُسُله بالمعجزات والآيات الباهرات، فلم يَبْق أمام أعداء الرُّسُل – بل وأعداء العَقْل – إلا المكابَرة والمعانَدة .

فإن إنكار الوحدانية لله دَفْع بِالصَّدْر، وضَرب بالوجْه .

فإن النفوس شاهدة بأن الله ليس له شريك .

بل الوجود أجمع شاهد بذلك .

وقد ضرب الله الأمثلة على ذلك، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:22] أي لو كان في الأرض والسماء آلهة مُتعددة لَفَسَدتِ السماوات والأرض، فالعقل والمنطق يقول : إما أن يتغلّب إله على إله على آخر، فيكون الغالِب هو المتفرِّد، وإما أن يَذهب كل إلهٍ بما له من مُلك ومكان وخَلْق، وهنا يَفسد أمر السماوات والأرض، ولذا قال رب العزة سبحانه :

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:91]

ومِن هنا فإننا ندعو كل إنسان مُنصف عاقل أن يتأمل في هذا المعنى، وأن يَعلم أن دعوة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم لم تَخرج عن دعوات الأنبياء السابقين، بل هي مُنتظمة في سِلكهم، سائرة في طريقهم، مُقتفية آثارهم، ومن هنا قال رب العزة سبحانه : ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:9] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علات، ليس بيني وبينه نبي . رواه البخاري ومسلم .

وفي رواية لمسلم : أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة . قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : الأنبياء إخوة من علات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد، فليس بيننا نبي .

ودعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم استجابة لدعوة أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حينما قال : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:129] .

هي بشارة نبي الله عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف:6] .

ونحن إذ نَضع بين يدي القارئ هذا الموضوع لنرجو الله وندعوه أن يَفتح به أعيناً عُمياً، وآذانا صُمّـــا، وقلوباً غُلْفا .

ونضع بين يدي القارئ أعظم إنسان في العالم [محمد صلى الله عليه وسلم] لِيَقف بنفسه على بعض البشارات التي وَرَدتْ في الكُتب المتقدمة من كُتُب أهل الكتابات، والتي كانت سببا في إسلام الكثيرين من أهل الكتاب .

كما نضع بين يديه إشارات إلى البشارات من خلال واقع مُعاصِريه صلى الله عليه وسلم، سواء ممن آمن به أو ممن لم يؤمن به، وإن كان أضمر ذلك في نفسه، وأقرّ به في قرارة نفسه .

كما نُشير إلى طريقة القرآن في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأشرنا إلى الأدلّـــة العقلية التي تقتضي صِدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأن دعوته ليست بِدعاً من الدعوات، وهو لم يُخالِف الرُّسل والأنبياء في أصل الدعوة إلى وحدانية الله وإفراده بالعبودية .

بل هذا أمر اتّفقت عليه الرسالات، وتتابع عليه الأنبياء، وأقر به الموحِّدون على مرّ الأزمان، حتى كان ذلك الإقرار في فترات خَلَتْ من الرُّسُل، كتلك الفترة التي سَبَقتْ مَبعثه صلى الله عليه وسلم، فقد وُجِد فيها من أفراد الناس من يُوحِّد الله، ولا يأكل ما ذُبِح لغير الله، وكان هؤلاء يُنكرون عِبادة غير الله .

وقد آن أن نترك القارئ مع محاور هذا الموضوع، وهي كالتالي :

١ – أعظم إنسان في العالم في القرآن والسنة.
٢ – أعظم إنسان في العالم في كتب أهل الكتاب.

(أعظم إنسان في العالم في القرآن والسنة)

محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن والسنة

لقد قرر الله في كتابه الْمُبين نبوة نبيِّــه محمد صلى الله عليه وسلم بِطُرق كثيرة مُتنوّعة، يُعرَف بها كمال صِدقه صلى الله عليه وسلم، فأخْبَر أنه صدَّق المرسلين، ودَعا إلى ما دَعوا إليه، وأن جميع المحاسن التي في الأنبياء فهي في محمد صلى الله عليه وسلم، وما نُزِّهوا عنه من النواقص والعيوب فمحمدٌ أولاهم وأحقّهم بهذا التنْزِيه، وأن شريعته مُهيمنة على جميع الشرائع، وكتابه مُهيمن على كل الكُتُب، فجميع محاسن الأديان والكُتُب قد جَمعها هذا الكتاب وهذا الدِّين، وفَاق عليها بِمحاسِن وأوصاف لو تُوجَد في غيره، وقرّره نبوته بأنه أميّ لا يَكتب ولا يَقرأ، ولا جَالَس أحدا من أهل العلم بالكُتُب السابقة، بل لم يُفجأ الناس حتى جاءهم بهذا الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما أتوا، ولا قَدَروا، ولا هُوَ في استطاعتهم، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وأنه مُحال مع هذا أن يكون من تلقاء نفسه، أو مُتقوّل، أو متوهّم فيما جاء به . وأعاد في القرآن وأبدى في هذا النوع، وقرّر ذلك بأنه يُخبِر بقصص الأنبياء السابقين مُطوّلة على الوجه الواقع الذي لا يستريب فيه أحد، ثم يُخبر تعالى أنه ليس له طريق ولا وصول إلى هذا إلا بما آتاه الله من الوحي، كمثل قوله تعالى لما ذَكَر قصة موسى مُطوّلة : (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)، (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ)، وكما في قوله : (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)، ولما ذَكَر قصة يوسف وإخوته مُطوّلة قال : (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) .

فهذه الأمور والإِخْبَارات المفصّلة التي يُفصِّلها تفصيلا لم يتمكّن أهل الكتاب الذين في وقته ولا من بعدهم على تكذيبه فيها ولا مُعارَضته – من أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقّــاً .

وتارة يُقرِّر نبوته بِكمال حكمة الله وتمام قُدرته، وأن تأييده لرسوله، ونَصْرِه على أعدائه، وتمكينه في الأرض موافق غاية الموافقة لِحكمة الله، وان مَن قَدَح في رسالته فقد قَدَح في حِكْمَة الله وفي قُدْرَته .

وكذلك نَصْره وتأييده الباهر على الأمم الذين هم أقوى أهل الأرض من آيات رسالته، وأدلة توحيده، كما هو ظاهر للمتأمّلين .

وتارة يُقرِّر نبوته ورسالته بما حازَه من أوصاف الكمال، وما هو عليه من الأخلاق الجميلة، وأن كل خُلُق عال سامٍ فَلِرَسول الله صلى الله عليه وسلم منه أعلاه وأكمله ؛ فَمَن عظُمت صِفته وفاقَتْ نُعُوته جميع الْخَلْق التي أعلاها الصِّدق . أليس هذا أكبر الأدلة على أنه رسول رب العالمين، والمصطفى المختار من الْخَلْق أجمعين ؟

وتارة يُقرِّرها بما هو موجود في كُتُب الأولين، وبشارات الأنبياء والمرسلين، إما باسمه الْعَلَم، أو بأوصافه الجليلة، وأوصاف أمّته، وأوصاف دِينه .

وتارة يُقرِّر رسالته بما أخبَر به من الغيوب الماضية، والغيوب المستقبَلة، التي وَقَعتْ في زمانه، والتي لا تزال تَقَع في كل وقت، فلولا الوحي ما وصل إليه شيء من هذا، ولا له ولا لِغيره طريق إلى العلم به .

وتارة يُقرِّرها بحفظه إياه، وعِصمته له من الْخَلْق، مع تكالب الأعداء وضغطهم، وجدّهم التام في الإيقاع به بكل ما في وسعهم، والله يَعصِمه، ويمنعه، وينصره ! وما ذاك إلا لأنه رسوله حقاً، وأمِينه على وحيه .

وتارة يُقرِّر رسالته بذِكْر عظمة ما جاء به، وهو القرآن الذي (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) وتحدّى أعداءه ومَنْ كَفَر به أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة واحدة، فعجزوا، ونكصوا، وباؤوا بالخيبة والفَشَل ! وهذا القرآن أكبر أدلّـة رسالته، وأجلّها، وأعمّها .

وتارة يُقرِّر رسالته بما أظهر على يديه من المعجزات، وما أجرى له من الخوارق والكرامات الدالّـة – كل واحد بمفرَدِه منها، فكيف إذا اجتمعت – على أنه رسول الله الصادق المصدوق، الذي لا يَنطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يُوحى .

وتارة يُقرِّرها بعظيم شفقته على الْخَلْق، وحُنوّه الكامل على أمّته، وانه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وانه لم يُوجد، ولن يُوجَد أحد من الْخَلْق أعظم شفقة وبِـراً وإحساناً إلى الخلق منه، وآثار ذلك ظاهرة للناظرين .

فهذه الأمور والطُّرُق قد أكثر الله من ذِكرها في كتابه، وقرّرها بِعبارات مُتنوّعة، ومعاني مفصّلة، وأساليب عجيبة، وأمثلتها تَفوق العد والإحصاء " [بطوله من القاعدة السابعة من : " القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن " للشيخ السعدي رحمه الله] .

فهذه الأمور التي قرّرها الشيخ وبسطها هي من الأدلة العقلية المتّفقة مع الأدلة النقلية، فالله تبارك وتعالى خاطَب العقول، ولذا نَعى على العرب أنهم لا يُعمِلون عقولهم في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وفيما جاء به رسول الله عليه الصلاة والسلام، فمن ذلك :

قوله تعالى : (أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [الأعراف:169] .

وقوله تعالى : (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [يونس:16] .

وقوله سبحانه وتعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [يوسف:2] .

وقوله عز وجل : (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [الأنبياء:10] .

إلى غير ذلك من الآيات التي خاطَبتْ عقول الناس، أفلا ترون إلى هذا النبي الذي أُرسل إليكم، لم يكن قبل اليوم يتلو من كتاب (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) [العنكبوت:48] ؟

كما أن هذا النبي الذي أُرسِل إليكم لبِث فيكم سنين عددا قبل بعثته، فأنتم تعرفون خُلُقَه، وتعرفون أمانته، وهو ذو نسب فيكم، بل هو من أشرافكم .

هذا خطاب للعقول السليمة أن تتفكّر وتتأمّل قبل أن تُكذِّب هذا الرسول الذي يأتيهم بأنباء الغيب، والتي لم يَجِدوا لها مَدْفَع، إلا أن يُدفَع في الصَّدْر، ويُقال عن الشمس في رابعة النهار ليس دونها غيم : هذا ليل !

فمن ذلك أنه أخبر بنبأ غَلَبة الرُّوم – النصارى – فيما بعد، وذلك في أَمَـــدٍ قريب :

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:2-6] .

وقد وَقَع هذا خلال الزمن الذي جاء به الوحي، والذي حُدِّد بـــ ﴿بِضْعِ سِنِينَ﴾ من الثلاث إلى التسع سنوات .

ودارت الأيام، ودَالَتْ الرّوم على فارس، وانتصرتْ الروم من بعد غَلَبِهم .

هذه آيات باهرات، ومعجزات ظاهرات، لم يستطيعوا دَفعها ولا ردّها في حقيقة الأمر، وإنما ردّوها ظلما وعُلوّاً، كما قال تعالى عن آل فرعون مع موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل:13، 14] .

ثم يُذكّرهم مع جحودهم، بأن هذا النبي لو كان كاذباً لم يُمكّن له في الأرض، ولا نَصَره الله على أعدائه، فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (43) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة:40-46]

وهذه أدلة عقلية تُخاطِب العقول إن كانت تَعِي !

كيف يُمكِّن الله لمن كَذَب عليه ؟

وكيف يَنصر الله من زَعم أن الله أرسله ؟

(أي : لو كان كاذبا على الله لَقَصَمه ولم يُمكِّن له ولم يَنصره)

فإن سُـــنّـــة الله أنه يأخذ الظالم أخذ عزيز مُقتَدر، وأنه يُملي للظالِم فإذا أخذه لم يُفلِتْه

والله لا يُحب الظالمين، ولا يُحب الكاذِبين، ولا يُصلِح أعمال المفسِدِين، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:81] .

وقد نصر الله نبيَّـــه مُحمدا صلى الله عليه وسلم، وأظهر صدقه، وأيّـــده على أعدائه، ونَصَره عليهم، حتى طأطأت أمامه رؤوس الجبابرة، وخضعت له صناديد قريش، وبَلَغتْ دعوته المشارق والمغارِب، واعترف بِصدقه القريب والبعيد، والعدو الْمُحارِب .

وقد صدّقه أهل الكتاب، وعرفوه بصفاته المذكورة في كُتبهم .

روى البخاري من طريق عطاء بن يسار قال : لَقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة . قال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صِفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحِرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سَمّيتُك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سَخّاب في الأسواق، ولا يَدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عُميا، وآذانا صُما، وقلوبا غُلفا .

ومِن هنا فإننا نُخاطِب العقول التي تَعِي أن تتأمل في حياة ذلك الرجل العظيم، الذي شهِد بنبوته كل مُنصِف من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام الذي كان يَهوديا فأسلَم لما رأى وجه النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فقال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئتُ في الناس لأنظر إليه، فلما استثبتّ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عَرَفْتُ أن وجهه ليس بوجه كذّاب . رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه .

وهو الذي قال الله في شأنه : (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ) ولذا ذهب غير واحد من المفسِّرين إلى أن المقصود بالآية هو عبد الله بن سلام رضي الله عنه .

فهو قد شهد شهادة الحق، وأخبر أن صفة النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة .

وقصة إسلامه في صحيح البخاري .

وشهِد كذلك هرقل (رئيس النصارى في زمانه) بصدق نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

فإنه لما جاء كتاب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى هرقل – عظيم الرُّوم – لم يَقُل : هذه رسالة خاصة بالعرب، ولا بالأعراب، كما لم يَقُل : هذا غير صادق، وإنما قال لأبي سفيان – وكان أبو سفيان آنذاك مُشرِكاً – : فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشّمتُ لقاءه، ولو كُنْتُ عنده لَغَسَلْتُ عن قَدَمِـــه . رواه البخاري ومسلم .

وآمن به ملِك الحبشة (النجاشي)، وقال عن القرآن – وقد سَمِع آيات من سورة مريم – فبكى حتى أخضل لحيته، وبَكَتْ أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تُلْيَ عليهم، ثم قال النجاشي : إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . رواه الإمام أحمد .

كما شهِد بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم غير واحد من اليهود، مع أنهم لم يُؤمِنوا به إلا أنهم اعترفوا أنه هو الذي ذُكِر ووُصِف في التوراة .

يهود يشهدون بنبوة نبينا صلى الله عليه وسلم

شهِدت اليهود بصدق نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

قال الله عز وجل : (وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ)

وعن أنس رضي الله عنه قال : كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده فقعد عند رأسه فقال له : أسلم . فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له : أطع أبا القاسم صلى الله عليه وسلم، فأسْلَمَ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول : الحمد لله الذي أنقذه من النار . رواه البخاري .

فهذا اليهودي أمـــر ابنه أن يُطيع أبا القاسم، مما يدلّ على أنه يعلم في قرارة نفسه بصدق نبوة النبي صلى الله عليه وسلم .

وحدّث سلمة بن سلامة بن وقش – وكان من أصحاب بدر – قال : كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل قال : فخرج علينا يوما من بيته قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بيسير فوقف على مجلس عبد الأشهل . قال سلمة : وأنا يومئذ أحْدَث من فيه سِناً على بردة مضطجعا فيها بفناء أهلي فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار، فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون أنّ بعثاً كائن بعد الموت، فقالوا له : ويحك يا فلان ترى هذا كائناً أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يُجزون فيها بأعمالهم ؟ قال : نعم، والذي يحلف به لودّ أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبق به عليه، وأن ينجو من تلك النار غدا . قالوا له : ويحك وما آية ذلك ؟ قال : نبي يُبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن . قالوا : ومتى تراه ؟ قال : فنظر إلـــيّ وأنا من أحدثهم سناً، فقال : إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه .

قال سلمة : فو الله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم وهو حي

بين أظهرنا، فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً، فقلنا : ويلك يا فلان ! ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت ؟ قال : بلى، وليس به !

وحدّثت صفية – رضي الله عنها – فقالت : كنت أحبّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه . قالت : فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل قباء في بني عمرو بن عوف غدا عليه أبي حُيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فأتيا كالَّيْن كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا . قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما مع ما بهما من الغمّ . قالت : وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حُيي بن أخطب : أهــو هــو ؟ قال : نعم والله ! قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم . قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ! رواه ابن إسحاق في السيرة فيما ذكره ابن هشام .

ها هم اليهود يشهدون بنبوة سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك جحدوا بها .

(فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ) .

ولذا قال عليه الصلاة والسلام : لو آمن بي عشرة من اليهود، لآمن بي اليهود . رواه البخاري ومسلم .

وفي رواية لمسلم : لو تابعني عشرة من اليهود، لم يبق على ظهرها يهودي إلا أسلم .

اللهم صل وسلم وزد وبارك على عبدك محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

التواضع والبَسَاطَة في حياة سيّد السّادة

لقد تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لم يدَع لمتواضِع قولاً، ولم يترك لِمُتَكَبِّر حجة .

فهو عليه الصلاة والسلام المؤيّد بالوحي، وهو خليل الرحمن، وهو من أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عُرِج به إلى السماوات العُلى، وهو عليه الصلاة والسلام سيد ولد آدم، بل هو أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك كان يتواضع لله فَرَفَعه الله عز وجل .

كان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي السوق، ويُمازحُ أصحابه، وكان رجل من أهل البادية اسمه زاهر، كان يهدي للنبي صلى الله عليه وسلم الهدية من البادية، فيجهزَه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن زاهراً باديتنا ونحن حاضرته، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه، وكان رجلا دميما، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبيع متاعه

فاحتضنه من خلفه، فقال له : من هذا ؟ أرسلني، والتفت، فعرف النبيَّ صلى الله عليه وسلم فجعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول : من يشتري مني هذا العبد ؟ وجعل هو يلصق ظهره بصدر النبي صلى الله عليه وسلم ويقول : إذا تجدني كاسداً، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لكنك عند الله لست بكاسد . رواه الإمام أحمد وغيره وهو حديث صحيح .

ويُمازِح أصحابه، وينام معهم

روى الإمام مسلم عن المقداد رضي الله عنه قال : أقبلت أنا وصاحبان لي، وقد ذهبت أسماعنا وأبصارنا من الْجَهْد، فجعلنا نعرض أنفسنا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس أحد منهم يقبلنا، فأتينا النبي صلى الله عليه وسلم فانطلق بنا إلى أهله فإذا ثلاثة أعنز، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : احتلبوا هذا اللبن بيننا .

قال : فكنا نحتلب فيشرب كل إنسان منا نصيبه، ونرفع للنبي صلى الله عليه وسلم نصيبه .

قال : فيجيء من الليل فيسلم تسليما لا يُوقظ نائما ويُسمع اليقظان .

قال : ثم يأتي المسجد فيُصلي، ثم يأتي شرابه فيشرب، فأتاني الشيطان ذات ليلة وقد شربت نصيبي، فقال : محمد يأتي الأنصار فيتحفونه، ويصيب عندهم ما به حاجة إلى هذه الجرعة ! فأتيتها فشربتها فلما أن وَغلت في بطني وعلمت أنه ليس إليها سبيل، ندمني الشيطان ! فقال : ويحك ما صنعت ؟ أشربت شراب محمد ؟ فيجيء فلا يجده فيدعو عليك فتهلك، فتذهب دنياك وأخرتك، وعَلَيّ شملة إذا وضعتها على قدمي خرج رأسي، وإذا وضعتها على رأسي خرج قدماي، وجعل لا يجيئني النوم، وأما صاحباي فناما ولم يصنعا ما صنعت .

قال : فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فسلّم كما كان يسلم، ثم أتى المسجد فصلى، ثم أتى شرابه فكشف عنه فلم يجد فيه شيئا، فرفع رأسه إلى السماء، فقلت : الآن يدعو عَلَيّ فأهلك، فقال : اللهم أطعم من أطعمني وأسق من أسقاني .

قال : فعمدت إلى الشملة فشددتها عليّ، وأخذت الشفرة فانطلقت إلى الأعنز أيها أسمن فأذبحها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هي حافلة وإذا هن حُفل كلهن، فعمدت إلى إناء لآل محمد صلى الله عليه وسلم ما كانوا يطمعون أن يحتلبوا فيه، قال : فحلبت فيه حتى عَلَته رغوة، فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أشربتم شرابكم الليلة ؟

قال : قلت : يا رسول الله اشرب، فشرِب، ثم ناولني فقلت: يا رسول الله اشرب، فشرِب، ثم ناولني فلما عرفت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد روى وأصبت دعوته ضَحِكْتُ حتى أُلقيت إلى الأرض .

قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إحدى سوآتك يا مقداد !

فقلت : يا رسول الله كان من أمري كذا وكذا، وفعلت كذا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما هذه إلا رحمة من الله، أفلا كنت آذنتني فنوقظ صاحبينا فيصيبان منها ؟

قال : فقلت : والذي بعثك بالحق ما أبالي إذا أصبتها وأصبتها معك من أصابها من الناس .

فأي تواضع تكتنفه عَظَمة هذا النبي الأمين صلى الله عليه وسلم ؟

يُغضي حياءً ويُغضى من مَهَابتِه *** فلا يُكلّم إلا حين يبتسمُ

النبي صلى الله عليه وسلم يبيت مع أصحابه وهو قائد الأمـــة، بل ويقتسمون اللبن بينهم بالسّوية !

واليوم نرى من ينتسب إلى العلم أو إلى المناصب الدنيوية لا يُكلِّمون الناس إلا من أطراف أنوفهم!

وربما لا يردّون السلام خشية أن تذهب الهيبة !

نبي الله يُسابِق أصحابه رضي الله عنهم

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابَقَ بين الخيل التي أُضمرت من الحفياء، وأمدها ثنية الوداع، وسابَقَ بين الخيل التي لم تُضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق .

وروى البخاري عن أنس قال : كانت ناقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم تُسمى العضباء وكانت لا تسبق، فجاء أعرابي على قعود له فسبقها، فاشتدّ ذلك على المسلمين، وقالوا : سُبِقَت العضباء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن حقا على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه .

سيّد ولد آدم يُدخل السرور على أهله، فيُسابِق زوجته

قالت عائشة رضي الله عنها : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا خفيفة اللحم فنـــزلنا منزلا، فقال لأصحابه : تقدموا، ثم قال لي : تعالي حتى أسابقك، فسابقني فسبقته، ثم خرجت معه في سفر آخر، وقد حملت اللحم، فنـــزلنا منـــزلا، فقال لأصحابه : تقدموا، ثم قال لي : تعالي

أسابقك، فسابقني فسبقني، فضرب بيده كتفي وقال : هذه بتلك . رواه أحمد وأبو داود والنسائي في الكبرى، وغيرهم، وهو حديث صحيح .

نبي الله صلى الله عليه وسلم يُجيب الدعوة ولو كانت على يسير الطعام

روى البخاري ومسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ جَدَّتَهُ مُلَيْكَةَ دَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِطَعَامٍ صَنَعَتْهُ له ، فَأَكَلَ مِنْهُ ، ثُمَّ قَالَ : قُومُوا فَلأُصَلِّ لَكُمْ .

قَالَ أَنَسٌ : فَقُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا قَدْ اسْوَدَّ مِنْ طُولِ مَا لُبِسَ ، فَنَضَحْتُهُ بِمَاءٍ ، فَقَامَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم وَصَفَفْتُ أَنَا وَالْيَتِيمُ وَرَاءَهُ ، وَالْعَجُوزُ مِنْ وَرَائِنَا . فَصَلَّى لَنَا رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ .

ويُجيب الدعوة ولو كانت من رجل فقير

ففي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : إن خياطا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لطعام صنعه . قال أنس : فذهبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الطعام، فقرّب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبزا ومرقا فيه دباء وقديد، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتتبع الدباء من حوالي القصعة .

وعند الإمام أحمد : أن خياطا دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى طعام فأتاه بطعام وقد جعله بإهالة سنخة وقرع .

والإهالة : ما أذيب من الشحم، وقيل : الإهالة الشحم والزيت، وقيل كل دُهنٍ أُوتُدِمَ به . ذكره العيني .

والسَّنِخَة : أي المتغيرة الرِّيح . قاله ابن حجر .

بل يُجيب الدعوة ولو كانت من يهودي أو يهودية !

فقد أجاب صلى الله عليه وسلم دعوة امرأة يهودية حينما دعته إلى الطعام .

روى الشيخان عن أنس أن امرأة يهودية أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها عن ذلك، فقالت : أردت لأقتلك . قال : ما كان الله ليسلِّطك على ذاك .

وقال مُؤكِّدا على هذا المعنى :

لو دُعيت إلى ذراع أو كراع لأجبتُ، ولو أهدي إلي ذراع أو كراع لقَبِلْتُ . رواه البخاري .

سيد ولد آدم يجلس بين أصحابه فيأتي الرجل الغريب فلا يُميِّزه من بينهم حتى يسأل عنه !

فعن أبي هريرة قال : بينا النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه جاءهم رجل من أهل البادية فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟

قالوا : هذا الأمغر المرتفق .

قال حمزة – أحد رواة الحديث – : الأمغر الأبيض المشرب حمرة .

قال : إني سائلك فَمُشْتدّ عليك في المسألة .

قال : سل عمّا بدا لك .

قال : أنشدك بربِّ من قبلك ورب من بعدك آلله أرسلك ؟

قال : اللهم نعم .

قال : وأنشدك به آلله أمرك أن نصلي خمس صلوات في كل يوم وليلة ؟

قال : اللهم نعم .

قال : وأنشدك به آلله أمرك أن تأخذ من أموال الأغنياء فتردّه على فقرائنا ؟

قال : اللهم نعم .

قال : وأنشدك به آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من اثني عشر شهرا ؟

قال : اللهم نعم .

قال : وأنشدك به آلله أمرك أن نَحُجّ هذا البيت من استطاع إليه سبيلا ؟

قال : اللهم نعم .

قال : فإني آمنت وصدّقت، وأنا ضمام بن ثعلبة . رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي .

وعن أبي جري جابر بن سليم قال : رأيت رجلا يصدر الناس عن رأيه لا يقول شيئا إلا صدَرُوا عنه .

قلت : من هذا ؟

قالوا : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : عليك السلام يا رسول الله مرتين .

قال : لا تقل عليك السلام، فإن عليك السلام تحية الميت قل : السلام عليك .

قال : قلت : أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال : أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضرّ فدعوته كشفه عنك، وإن أصابك عام سنة فدعوته أنبتها لك، وإذا كنت بأرض قفراء أو فلاة فَضَلّت راحلتك فدعوته ردّها عليك .

قلت : اعهد إليّ .

قال : لا تسبن أحدا .

قال : فما سببت بعده حُرّا ولا عبدا ولا بعيرا ولا شاة .

قال : ولا تحقرن شيئا من المعروف، وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك إن ذلك من المعروف، وارفع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، وإن امرؤ شتمك وعيرك بما يعلم فيك فلا تعيره بما تعلم فيه، فإنما وبال ذلك عليه . رواه الإمام أحمد وأبو داود .

من أجل ذلك لجأ أصحابه إلى تمييزه

فعن أبي ذر وأبي هريرة قالا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس بين ظهري أصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل، فطلبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نجعل له مجلسا يَعرفه الغريب إذا أتاه . قال : فبنينا له دُكاناً من طين فجلس عليه، وكنا نجلس بجنبتيه . رواه أبو داود والنسائي .

قال ابن الأثير : الدكان الدَّكة المبنية للجلوس عليها .

نبي الله صلى الله عليه وسلم يستمع لامرأة في عقلها شيء

روى الإمام مسلم عن أنس أن امرأة كان في عقلها شيء، فقالت : يا رسول الله إن لي إليك حاجة، فقال : يا أم فلان ! انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها .

اسْتَمَعَ صلى الله عليه وسلم إلى ما تريد أن تقوله فلم يضع ذلك من قدره بل رفع الله منـــزلته صلى الله عليه وسلم .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي لهم حوائجهم

فعن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثر الذكر، ويُقلّ اللغو، ويُطيل الصلاة ويقصر الخطبة، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له حاجته . رواه النسائي .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس مع أصحابه في بستان ويُدلّي رجليه مع أرجلهم في البئر

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في حائط بالمدينة على قُفّ البئر مُدلّياً رجليه، فَدَقّ الباب أبو بكر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي موسى : ائذن له وبشِّره بالجنة، ففعل فدخل أبو بكر فَدَلَّى رجليه، ثم دقّ الباب عمر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائذن له وبشِّره بالجنة، ففعل، ثم دقّ عثمان الباب، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائذن له وبشِّره بالجنة، وسيلقى بلاء . رواه الإمام أحمد .

ارتعد منه رجل فقال له : هوِّن عليك ! فإني لست بملك إنما أنا بن امرأة تأكل القديد !

طأطأت أمامه رقاب أعدائه، فطأطأ رأسه تواضعاً لله

دَخَل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فاتحاً مُتواضعاً حتى إن ذقنه ليمس رَحْلَه .

كان عليه الصلاة والسلام يركب الحمار، ويُجيب دعوة المملوك، ويأكل على الأرض، ويعتقِل الشاة .

وكان يُردِف بعض أصحابه خَلْفَه

فقد أردف ابن عمِّه ابن عباس رضي الله عنهما

وأردف معاذ بن جبل رضي الله عنه

وهذا لا يفعله أرباب المناصب ولا أصحاب الأموال !

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرقع ثوبه، ويخصف نعله

كان في بيته يكون في مهنة أهله، يعني في خدمتهم

سُئلت عائشة رضي الله عنها : ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته ؟ قالت : كان يكون في مهنة أهله – تعني خدمة أهله – فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة .

وقيل لعائشة رضي الله عنها : ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته ؟ قالت : كما يصنع أحدكم : يخصف نعله، ويرقع ثوبه . رواه الإمام أحمد .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام على الحصير حتى أثّر في جنبه

قال عمر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدَم حشوها ليف، وإن عند رجليه قرظا مصبوبا، وعند رأسه أُهُب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فقال : ما يبكيك ؟ فقلت : يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله ! فقال : أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ رواه البخاري ومسلم .

وسجد على الأرض من غير حائل بينه وبينها، حتى سجد في ماء وطين من أثر المطر

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر، وقد أُرِيت هذه الليلة ثم أنسيتها، وقد رأيتني أسجد في ماء وطين من صبيحتها، فالتمسوها في العشر الأواخر، والتمسوها في كل وتر، فمطرت السماء تلك الليلة، وكان المسجد على عريش فَوَكَف المسجد فبصرت عيناي رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبهته أثر الماء والطين من صبح إحدى وعشرين . رواه البخاري ومسلم .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبِّل الصبيان ويُلاعبهم

وكان يَمُرّ بهم فيُسلِّم عليهم

لو شاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسير معه الجبال ذهبا لكان، ذلك أنه خُيِّر بين أن يكون عبداً نبياً وبين أن يكون نبيّاً ملِكاً، فاختار أن يكون نبيّاً عبدا .

قال المسيح عليه الصلاة والسلام : طوبى للمتواضعين في الدنيا، هم أصحاب المنابر يوم القيامة .

طوبى للمُصلِحين بين الناس في الدنيا، هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة .

كتبه / محمد بن عبد الله السحيم